مع السيِّد وحيد!».

قلتُ لنفسي: حسناً، هذا شخص آخر يسقط في اللّعبة!

ابتسمتُ له وقلتُ وأنا أدعوه للجلوس: أنت تتحدّاه إذن!

قال: ولِمَ لا؟

التفت السيِّد وحيد إليه ساخراً، وقال: يحسن أن تذهب وتتعلّم قبل أن تغامر معي، فالمقهى يعجّ باللاعبين!

أجاب السيِّد نائل: لقد اخترتك، فأنت لاعب جيِّد، إنّني أتحدّاك وعلى رؤوس الأشهاد!

قال وحيد، وهو ينظر إليه بودٍّ واضح: وأنا قبلتُ التّحدِّي!

أمّا السيِّد نائل، فقد ظهر عليه الارتياح، وكاد يعانقه، كأنّما تحقَّقت لديه أمنية من أمنيات العمر. ولكنّه ما لبث أن قال: أرغب أن تتمّ اللّعبة في آخر الليل، عندما يفرغ المقهى من الزبائن، لكي تكون الجلسة أكثر هدوءاً وراحة.

وافق السيِّد وحيد على ذلك، بينما أعرب صديقنا أحمد رحمه الله عن اعتذاره عن الحضور لأنّه لا يستطيع السّهر طويلاً.

وهكذا حين أطبق اللّيل وفرغ المقهى من الزبائن، انتقلنا نحن الثلاثة إلى مائدة بمحاذاة السّياج الذي يفصل المقهى عن النّهر. جلس هو ووحيد متقابلين إلى مائدة اللّعب. وأمّا أنا فجلستُ على بُعدِ خطوتين أُدخِّنُ آخِرَ ما تبقّى لي من السّجائر.

أخرج السيِّد نائل علبة دومينو جديدة تناولها وحيد متفحِّصاً إيّاها قطعةً قطعة، وفجأة قال السيِّد نائل: «لقد نسينا الرّهان». ثمّ التفت إلى النّهر وقال: «هل ترى النّهر يا سيِّد وحيد؟! إنّه في ذروة الفيضان ولا يخلو من خطورة. ولكن ما العمل؟ إنّني أحبُّ المغامرة!» ضحك ثمّ قال: «أنت حرٌّ تماماً يا سيِّد وحيد ويمكنك أن تنسحب من اللّعبة؛ ذلك أنّ شرطي الوحيد خَطِرٌ، ولكنّه في منتهى الرّوعة.. إنَّ مَن يخسر اللّعبة عليه أن يرمي نفسه في النّهر بكامل ملابسه، وسيكون المنظر رائعاً حقّاً».

«يا له من مزاح ثقيل!»، قلتُ لنفسي. أمّا السيِّد وحيد فقد وافق ضاحكاً. قال: «لا أفكّر في الخسارة، وإذا خسرت فإنّ ملابسي ليست أنيقة على أيّة حال»!

وهكذا بدأت اللّعبة..

ولا أكتمكم أنّني راقبت بدايتها، ولكنّي لم ألبث أن أزحتُ الكرسيَّ الذي أجلس عليه، وانصرفتُ إلى منظر النّهر الذي تكشفه أضواءُ المقهى الشّاحبة. كان يدوّم ويسرع تحت أقدامنا، وكان صوت الماء يرتفع إلى رأسي، فيما كانت أمواج المياه تدور وتلتفّ، وتكاد تصل إلى الموائد. وأمّا قطع «الدومينو» فقد كانت تتساقط مع أصوات المياه. شعرت بدوار في رأسي يجتاحني، فأمسكتُ رأسي بيدي، ناظراً بعينين نصف مغمضتين إلى النّهر وامتداداته التي تغيب في الظلام الثّقيل. وبعد فترة ليست بطويلة طرق سمعي سقوطُ شيءٍ ثقيل في النّهر، مثل حجر كبير. التفتُّ إلى مصدر الصّوت، فرأيتُ السيِّد نائل يحدِّق إلى أسفل السّياج. كانت مصابيح المقهى الخافتة تلقي على الماء ضوءها الشّاحب ليظهر لنا رأس السيِّد وحيد في الماء الغريني الثّقيل، يظهر ثمّ يختفي، ويبتعد، ثمّ تدفعه المياه إلى نهايات لا تُرى..

عقدتِ الدّهشةُ لساني، وتشبّثتُ بالسّياج الحديديّ كي لا أسقط. ثمّ التفتُّ إلى السيِّد نائل أسأله عمّا حدث.

أخذ السيِّد نائل بيدي وأجلسني ثمّ قدّم لي سيجارة. وبهدوء غريب قال وهو ينظر إلى تيّارات المياه المتدافعة: «لقد خسر السيِّد وحيد اللعبة. وقبل أن يقفز إلى النّهر سألني عمّا إذا كنت أستطيع أن أمنحه فرصة ليلعب معي اليوم أو غداً لعبة أخرى أكثر ذكاءً كالبوكر أو الشطرنج، فرفضتُ ذلك وقلت له: على المرء أن يتقن لعبة واحدة، حتّى لو كانت سخيفة»

وفجأة قال لي الأستاذ نائل: «لماذا تنظر إليّ أنتَ بحقد.. ألم يكن هذا هو الرّهان.. ألم يوافق عليه؟ ألم تكن حاضراً وشاهداً حين بدأت اللعبة وانتهت؟»

ثلاث قصائد

موسى كريدي

١ ـ الحزن في بغداد

مرَّ ببابِ السُّور
مرَّ ببابِ القصرِ والمدينه
معمَّداً بشوقِ بغدادَ إلى عشّاقِها
الغافين تحت القمرِ المصدور
نهرٌ من الرَّصاص
نهرٌ من الرّخام
نهرٌ من الأغاني

* * *

خيَّمَ في يديه
عصرٌ من الجُذام
فخبّأ التّابوت في شرشفِه
وقامْ.
شدَّ الهوىٰ ضفيرةً سوداء
وشقَّ كلُّ واحدٍ قميصه
من شجرِ الظّلام

* * *

يُضيءُ هذا النّهر كالصَّفيح
في الخرائطِ الحزينه
يدورُ دورةَ الصّداعِ في السّكون
إذْ يبدأُ الرَّحيل
من سبلِ الحيرةِ نحو اللّيلِ والجنون

* * *

يحملُ في عروقِه النّدىٰ
ويحملُ الحريق

يجتازُ عتمةَ الجبل
وأفقُه المحدَّبُ البعيد
حديقةٌ وريفْ
في ليلِ هذا الزّائرِ المجنون
يثرثرُ الحزنُ على ناصيةِ
القلبِ، كما يثرثرُ الخريفْ
* * *
الحزنُ هذا الملكُ الجوّال
مقرورةٌ عيناه في منصّةِ الأمير
مبهمةٌ إصْبَعُهُ
في ورقِ التّزيفْ
الحزنُ هذا شبحٌ من ماس
يزاحمُ العيونَ والتّخوم
والحزنُ في بغدادَ ميناءٌ
على الرّصيفْ
* * *
يا أيُّها العائدُ من مغارةِ الطفولهْ
يا نهرُ، يا مجرّةً في الرُّوح
عُدْ للهوىٰ والنّاس
عُدْ لا تدعْ شجيرة الطّاعون
تجرحُ هذي الكاس
* * *

٢ ـ غَرَق . . .

كنتُ اللّيلةَ
أحملُ جثّةَ نفسي
أهربُ منكَ، إليكَ
أرفو في كفّيك
كفَني . . .
آهٍ لو تأذنُ لي، وطني،
أن أهجُرَ شطآنَك
فالغلُّ السّاكنُ في عنقي
فَضَّضَ دمعَ البحرِ وأطبَقْ
سيفاً أزرقْ.
* * *
كمْ كنتَ ترىٰ رأسي
مزروعاً في «مائدةٍ»
ويدي في نعشٍ محظورٍ تشهقْ
الآنَ دمي قوسُ قزحٍ
من صيف
الجبهة طيَّ فمي، بيدق
والكَلِمَةُ يأكلُها الدُّود
ألنَّسْرُ القادمُ قرصان
والشَّجرُ النّابتُ أبراجٌ طاحتْ
طاحَ البيرق
طحتَ اللّيلةَ في صهريج
عُدْ للقاع . .
إنّي ألمحُ برجَكَ يغرقْ
في أطيافي
هل عدتَ تلملمُ أطرافي؟
قلبي يهديكَ الأشواقِ
نمْ، بعدي، لا تقلقْ
* * *
صيّاداً جئتَ بلا زورقْ
ترمي في نهري أسئلةً
وتغوصُ بلحمِ الماء.
تبحثُ عن ضفّهْ.
سفري نحوَكَ بَدْء
فرسي ماء . .
ويدي صهوةُ صيف
هلْ تطلعُ من مهدِكَ
أمْ تطلعُ من أثوابِ المطلق؟
* * *
في شطّيكْ
أو في المقهى
أو في غسقِ الخندق
كنتُ اللّيلةَ أسكنُ محوي
أرشفُ قهوه . .
أقرأُ في فنجاني موعدَ دفني
وأرىٰ طمياً ورهاناتٍ
وأرىٰ الزّنبقْ
مصلوباً في غارْ
يطلعُ شيءٌ من روحي
يصرخُ ملءَ الطّوق
يا إكليلَ النّارْ
خُذْ بي لصباحِ الدّينونة
فأنا رهنُ الغبشةِ
جسدٌ أعمىٰ
وفمٌ مغلقْ
* * *

٣ ـ مرثيّة

قرّبِ الماءَ من خطوِنا
إنَّ بعضَ الشَّجَرِ
ماتَ في لحمِ هذي السّهول
والسَّماءُ التي ترمِّمُ الأفق في حيِّنا
غارَ في صمتِها ضوءُ هذا الشَّفَقْ
* * *
يا زمانَ الغَرَقْ
نحنُ شِبْنا هنا، وافترقنا هنا
واحترقنا معاً في التّزيف
فاستضفنا الهوىٰ مرّةً
واستضافَ العيونُ القلقْ
* * *
خُذْ بنا نحوَ غاباتِنا في أقاصي الذهول
واحتفِلْ بالمراثي الّتي
أنْبَتَتْ في نواصي النّهارِ الأرقْ
* * *
هيّئ السَّفْحَ أنْ ينتظر
بعضَ مَنْ رحلوا.
هيّئ الطّميَ إنَّ الخريف
يطرقُ الآنَ أبوابَنا.
بيننا والمدىٰ هوّةٌ
بيننا والرَّدىٰ
برزخٌ من ألَقْ
مرَّ من بابِنا واحترقْ
أغلِقِ الآنَ هذه الخطا
قبل أنْ تبلُغَ الرّيح . . شبّاكَنا
يا زمانَ الغَرَقْ

بغداد